عرض كتاب: الإنسان وبيئته – تطور البيئة المعيشية
نهج للجغرافيا العالمية أو كيفية اندماج الإنسان مع النظام البيئي

تأليف: Gabriel Rougerie إدارة: Jean-Robert Pitte تقديم: عاطف حافظ سلامة[1]

ملخص:

يقدم الفكر الجغرافي الفرنسي البيئة في سياق غير تقليدي من خلال كتاب Gabriel Rougerie بعنوان: L'homme et son milieu أي الإنسان وبيئته. ويرفق بهذا العنوان الرئيسي عنوان أخر ثانوي: L'évolution du cadre de vie أي تطور البيئة المعيشية. مما يثير الذهن بسؤال رئيس: هل تختلف البيئة المعيشية عن البيئة البشرية التي تختلف بدورها عن البيئة الطبيعية؟ ثم يضيف عنوان ثالث بحجم خط أقل من العنوانين السابقين: Une approche de la géographie globale ou comment l'homme interagit avec l'écosystème أي نهج للجغرافيا العالمية أو كيفية اندماج الإنسان مع النظام البيئي؛ مما يثير تساؤل آخر: ما النهج المتبع في معالجة ما اسماه بالجغرافيا العالمية لهذا المصطلح البيئي المختلف عن المصطلحات التقليدية؟ يدفع البحث عن الإجابة لهاذين السؤالين نحو قراءة هذا العمل وتقدم محتوياته بشكل عام للقارئ العربي لعله يستفيد مما سيرد من معلومات.

يستدعي البحث عن إجابة للأسئلة المثارة التعريف بالمؤلف أولا، ووصف محتويات الكتاب ثانيًا، واستعراض مقدمة الكتاب وأجزاءه الرئيسية ثالثًا، وترقب خاتمة الكتاب لمعرفة ماذا سيقول المؤلف في نهاية استعراضه لموضوع يعد على درجة كبيرة من الأهمية في عالمنا اليوم رابعًا، مما يدفع أخيرًا إلى تقديم شرحه لكثير من المصطلحات التي ورد ذكرها بمتن الكتاب خامسًا.

أولاً: التعريف بالمؤلف:

غابرييل روجيري Gabriel Rougerie: أستاذ الجغرافيا الفخرية بجامعة باريس السابعة، كرس جزءًا كبيرًا من حياته للجغرافيا الحيوية، له عشر مؤلفات مختلفة على النحو التالي: الأنظمة المورفولوجية والعائلات النمطية في المناطق الجافة (١٩٦٢-١٩٦٧) – ساحل العاج ضمن سلسلة ماذا أعرف (١٩٦٤-١٩٦٧-١٩٧٢-١٩٧٧) – الجغرافيا الحيوية الساحلية (١٩٦٧) – جغرافية المناظر الطبيعية (١٩٦٩-١٩٧٧) – البيئات المعيشية (١٩٧٥) – بيئات الغابات (١٩٨٣) – الجغرافية الحيوية

(١) أستاذ جغرافيا العمران الحضري ونظم المعلومات الجغرافية – كلية الآداب – جامعة المنوفية.

(١٩٨٨) – الجبال في المحيط الحيوي (١٩٩٠) – النظم البيئية والمناظر الطبيعية (١٩٩١) – الجغرافيا الحيوية للبيئات المائية (١٩٩٤).

ثانياً: محتويات الكتاب:

يقع الكتاب في ٢٨٨ صفحة، يحتوي على ثمانية فصول، تتوزع بين ثلاثة أجزاء مميزة عن بعضها البعض. يتناول الجزء الأول البيئات المعيشية ذات الهيمنة الإيكولوجية، ثم يستعرض الجزء الثاني البيئات المعيشية ذات الهيمنة العرقية والثقافية، وأخيرًا الجزء الثالث يناقش البيئات المعيشية في مخاطر المجتمع السيبراني، كما يضم الكتاب مقدمة وخاتمة وأخيرًا قائمة من المصطلحات العلمية، علاوة على عشرين شكل توضيحي، وقائمة من المصادر والمراجع الممتدة عبر تسع صفحات، تضم ما يقرب من ٣٠٠ عمل علمي، موزعة حسب أجزاء الكتاب الثلاثة. وفيما يلي ترجمة بتصرف لمقدمة الكتاب ومحتوياته الرئيسية.

ثالثاً: مقدمة الكتاب:

"يبدو اليوم أنه من الصعب القيام بعمل حول البيئات المعيشية. لا تقيس الأداة المساعدة، ولا وسائل المعلومات المتاحة، نوعية البيئات المعيشية les cadres de vie، بقدر ما تقيس نوعية الظروف المعيشية؟" كتبنا – Gabriel Rougerie – هذه الجملة قبل ربع قرن في مقدمة عمل سابق: البيئات المعيشية (١٩٧٥).

في الواقع، في ذلك الوقت، كانت القضية في دائرة الضوء. في عام ١٩٧١، خلص المؤتمر الوطني للغرف الاقتصادية الشابة، في غرونوبل، إلى ضرورة تكريس نفسه لدراسة مشاكل البيئات المعيشية Problèmes des cadre de vie، بينما أكد مؤتمر الاقتصادات الإقليمية في بوردو على الأهمية المتزايدة التي تأخذ في الاعتبار نوعية البيئات المعيشية Qualité des cadres de vie. وفي العام التالي، أعلن "ميثاق الطبيعة" الذي أنشأته سبعة عشر جمعية وطنية أن "إحدى المهام الأساسية في عصرنا هي تحقيق التقدم في البيئة المعيشية" Progrès du cadre de vie.

ومنذ ذلك الحين، أفسح هذا النوع من الاتجاه المجال في وسائل الإعلام المختلفة لموضوعات رئيسية أخرى، مثل المخاوف بشأن ظاهرة الاحتباس الحراري Effet de serre، أو العولمة Mondialisation، أو الإنترنت Internet. لكن إذا لم تعد شعارات العصر مرفوعة، فإن الحساسية تبقى، في العقول وفي السلوك، تجاه الأماكن التي نشعر بأننا نعيش فيها معًا، وتلك التي نتخيل مظهرها.

في نفس الوقت، قبل خمسة وعشرين عامًا، بدا من المفيد لنا أن نحدد مسبقًا بشكل مطول مفهومي "Milieu – البيئة الطبيعية" و"Environnement – البيئة البشرية". اليوم، حتى لو لم تكن الأفكار دائمًا دقيقة جدًا بشأن ما تمثله البيئة الطبيعية Milieu بالنسبة للبيئة البشرية Environnement، فإن تكرار الإشارات إلى علم البيئة l'Écologie في المجتمع الحالي قد عرّف الجمهور بالخطوط الرئيسية لهيكل وعمل أنظمة المحيط الحيوي Biosphère.

فهل هناك علاقة بين هؤلاء وما تشمله فكرة البيئات المعيشية؟

من حيث المبدأ، ينبغي للجغرافيا أن تكون التخصص الأنسب لدراسة هذه الأخيرة أي البيئات المعيشية. لقد تحدثت – وهنا يقصد الجغرافيا – إلى حد الشبع، عن أنماط الحياة Genres de vie وعن المناظر الطبيعية (Paysages – اللاندسكيب)، أي المكونان لما نسميه البيئة المعيشية Cadre de vie. وبعبارة أخرى، فإن الأنشطة والعلاقات المتبادلة من جهة، ونتائجها المتصورة من جهة أخرى، هي أساس إشكالية البيئات المعيشية Problématique des cadres de vie. بحكم التعريف أيضًا، تدرس الجغرافيا تمايز الفضاءات الأرضية (المجالات أي الأماكن)، وتوزيع العناصر الفيزيائية physiques والحيوية biotiques، ومجموعاتهما، وعلاقاتهما بالمجتمعات البشرية Sociétés humaines.

يهتم علم البيئة Ecologie أيضًا بالمجموعات التي تربط الكائنات الحية ببعضها البعض من جهة ومع المكونات المادية Physiques لبيئتها المعيشية من جهة أخرى. باستثناء أن هذه المجموعات تم تعريفها على أنها أنظمة، بشكل أكثر صرامة في علم البيئة منه في علم الجغرافيا، لكن كان علم البيئة أبطأ في أخذ الإنسان في الاعتبار، فضلاً عن أهمية الفضاء.

هذه الرؤية للأشياء التي يمتلكها علم البيئة، ازدهرت في صياغة النظام البيئي Ecosystème: نموذج من النوع الديناميكي الحراري، الذي يدمج التفاعلات بين الكائنات الحية والبيئة الطبيعية Milieu – المجتمع الحيوي Biocénose والبيئة الحيوية Biotope – وكذلك بين الكائنات الحية Organisme بعضها البعض.

ويبدو أنه يمكننا الاعتماد على هذا الأساس المفاهيمي للنظام البيئي لدراسة ما تمثله البيئات المعيشية. مع العلم، لا يمكن تشبيه النظام البيئي تمامًا بالبيئة المعيشية، لكن نظرًا لأنه مكرس لدراسة بنية الكيان وعمله، يمكن أن يكون هذا المفهوم بمثابة نموذج تمثيلي.

يتحدث علماء البيئة والجغرافيون على حد سواء عن البيئة الطبيعية Milieu. تتوافق البيئة الطبيعية في حد ذاتها مع الأشياء والقوى التي يوجد من بينها موضوع مركزي، أي الجسم المنظم لعلم الأحياء، أو الفرد أو المجموعة البشرية في علم الاجتماع. تتمتع بيئات كوكبنا الطبيعية بخصوصية كونها مجمعات مادية من الأشياء ومجالات القوى التي تُطعم منها الحياة. ويبدو منطقيا بهذه الروح أن علم البيئة يميز بين البيئة الطبيعية غير العضوية Milieu inorganique والبيئة الحية Milieu vivant.

الأول، وهو ما يعادل تقريبًا فكرة البيئة الحيوية Biotope، يشير إلى العوامل المناخية والطبوغرافية والعوامل البيئية، والتي تحدد مجموعاتها ظروف الاستقبال المتوفرة في مكان ما للكائنات الحية. وتقع هذه الشروط في جانبين متعارضين: الموارد والقيود (التي يضيف إليهما الجغرافي فئة ثالثة، وهي الحوافز، لمراعاة خصوصيات العقل البشري). ومن الواضح أن البيئة الحية Milieu vivant تتكون من جميع الكائنات الحية الموجودة في سياق غير عضوي معين. وهي ما تتوافق مع Biocénose (بيوسنوز) المجتمع الحيوي الذي يتكون من الروابط الهيكلية والوظيفية الموجودة بين هذه الكائنات.

في المستوى التالي من التنظيم، نصل إلى النظام البيئي Ecosystème: إلى الروابط الوظيفية بين الكائنات الحية ويضاف إليها تلك التي تم إنشاؤها بين هذه الروابط الأخيرة والبيئة غير العضوية Milieu non organique. إنه نظام يدمج مدخلات الطاقة والمادة في شبكة غذائية تسمح بتطور المادة الحية والكائنات الحية وصيانتها وتكاثرها وإعادة تدوير هذه المواد بشكل مشترك.

على عكس البيئة البشرية Environnement، التي هي مجرد إضافة عناصر مختلفة، دون التماسك الضروري بين بعضها البعض، في مساحة محددة إلى حد ما، بينما تتوافق البيئة المعيشية Cadre de vie مع نظام Système، ولهذا السبب فهي تشبه نموذج النظام البيئي Ecosystème. تعد العلاقات بين العناصر المكونة لهذا النظام ضرورية لهذا نترك النظام البيئي غير المحدد للبيئة البشرية Environnement. هذه العلاقات هي التي تجعل من فضاء معين فضاءً منظمًا؛ وجزء كبيرا من سمات البيئة المعيشية Cadre de vie يتوافق مع التعبير – ليس البصري فقط – عن هذه العلاقات التي يعقدها الإنسان وربطها مع بيئته المعيشية Cadre de vie. تعد العلاقات التي تقوم، جزئيًا، على استخدام عناصر هذه البيئة الطبيعية Milieu لأغراض التغذية والسكن والتعايش: باختصار، هي علاقات مشابهة جدًا لتلك التي ينشئها أي كائن حي وفقًا للمكانة البيئية التي يشغلها في النظام البيئي. من هذا المستوى، تلعب حياة العلاقات أيضًا دورًا، قبل كل شيء، مع التجربة العاطفية والثقافية، حيث يفلت أي يتحرر مفهوم البيئة المعيشية Cadre de vie، في الوقت نفسه، من الحتميات الصارمة للحياة المادية ويأخذ بعده الإنساني.

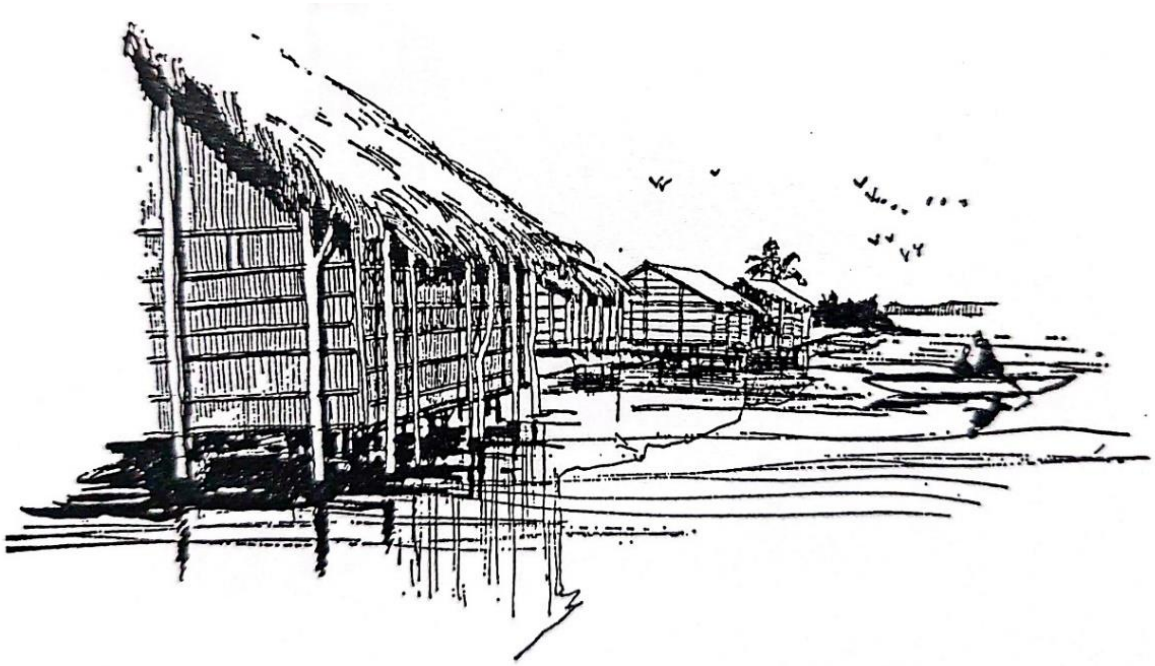

الشكل 1: شعب يصطاد السمك من البحيرات الإيفوارية

تعبير بيئة معيشية مقتصر على وظيفة العيش "المخيم" بين أرض غير مستغلة ومياه لا تسجل عليها آثار نشاط

هناك نجد، بالنسبة للفرد والمجتمعات، العلاقة الأقوى، تلك التي تُشخصن أو لا تُشخصن ما، بدونها، لن يكون سوى البيئة البشرية Environnement.

إن تشابك علاقات الحماية والاستخدام فيما يتعلق بمكونات البيئات المعيشية – التي تم تعديلها عبر التاريخ وفقًا لكفاءة التقنيات – مع روابط الارتباط التي خلقتها تجارب الكائنات التي تعاقبت في هذه الأماكن، قد تركت آثارًا مادية وغير مادية على الأرض وفي الأذهان. هذه الآثار، التي تميل إلى أن تكون لها الأسبقية على العناصر التي يتم التعبير من خلالها عن البيئة الطبيعية Milieu، هي أساس ما نسميه بالبيئة المعيشية Cadre de vie.

في هذه المواجهة بين الإنسان و"الطبيعة" مصطلحان يبدو التمييز بينهما واضح: الحالة التي يؤدي فيها ثقل البيئة الطبيعية إلى هيمنة العلاقات البيولوجية؛ وتلك التي تسود فيها العلاقات العرقية والثقافية. ويمكننا أن نضيف إليهما سؤالاً حول ما ستؤول إليه هذه العلاقات وآثارها، في عالم ستصبح أبعاده المكانية والزمانية موضع تساؤل في مرحلة جديدة من تاريخ البشرية مرتبطة بالتكنولوجيات والمعلومات والخيارات الاقتصادية لليبرالية الجديدة.

الجزء الأول: البيئات المعيشية ذات الهيمنة الإيكولوجية:

هناك مستوطنات بشرية على كوكب الأرض تدين بوجودها لرغبة الإنسان في استغلال عنصر أو أكثر من عناصر البيئة الطبيعية المحلية. يأتي الاستغلال للأغراض المعيشية مثل كافة مصادر الغذاء [مزرعة القريح بمحافظة البحر الأحمر على سبيل المثال]، أو للأغراض التكنولوجية كما هو الحال بالنسبة للمواد الأولية الصناعية [منجم وكسارة وميناء الفوسفات بالحمراوين على ساحل البحر الأحمر مثلا]. وفي كلتا الحالتين، فإن علاقة الإنسان مع البيئة الطبيعية المحيطة به هي من نفس طبيعة علاقات أي مشارك أخر مع النظم البيئية، مستهلكًا أو مفترسًا، حتى لو تمكنت الدرجات التي يتم الوصول إليها من خلال هذه العلاقات المتمركزة حول الإنسان من الانفلات من تنظيم التوازنات التي تسود النظم البيئية الطبيعية.

في هذه المستوطنات حيث يجب على الإنسان أن يأخذ في الاعتبار خصائص البيئة الطبيعية المحلية، يمكن التمييز بين نوعين.

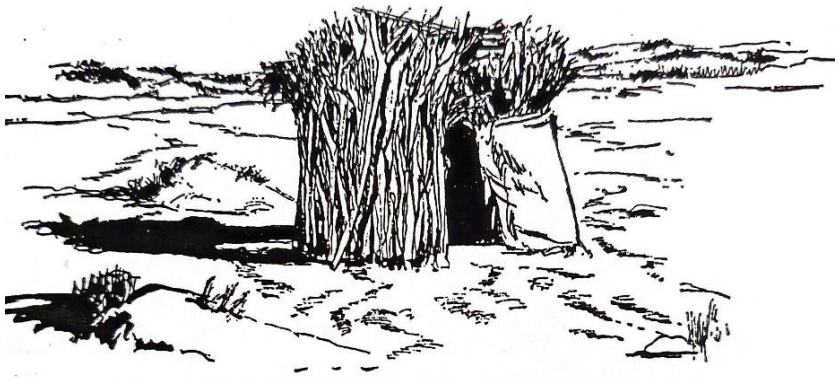

صورة (2) كوخ للرعاة في صحراء الإنديز: مأوى بسيط ضد الشمس والرياح

المصدر: Gabriel ROugerie (2000): L'homme et son milieu, NATHAN, Paris, p. 14

في أغلب الأحيان، تجد المجموعة البشرية نفسها مستقرة في مكان معين لأن أعضائها ولدوا هناك، أو جاءوا إلى هناك دون أن تشكل الحركة انقطاعا كبيرًا. في هذه الحالة تمثل العلاقات مع البيئة الطبيعية نوعًا من التكيف الذي جعل من الممكن الجمع بين وظيفتي السكن والتغذية. وظهرت حالات أخرى، هي أكثر ترددًا في العالم الحديث، حيث اختار الإنسان الاستقرار في بيئة طبيعية ليست مناسبة له، لاستغلال مورد ذي قيمة خاصة. هذا الاختيار لواحد فقط من المعطيات البيئية الطبيعية كالتعامل مع التربة كبيئة بيولوجية مثل المناجم، أو طبوغرافية كالمواضع الاستراتيجية، أو مناخية كالسياحة، مثل هذه المعطيات يمكن أن تؤدي إلى بيئات هامشية تمامًا بالنسبة للأرض المسكونة، وفي كل الأحوال تؤدي دائمًا إلى ظهور علاقات يختفي منها الاهتمام بالحصول على لقمة العيش من الفضاء البشري.

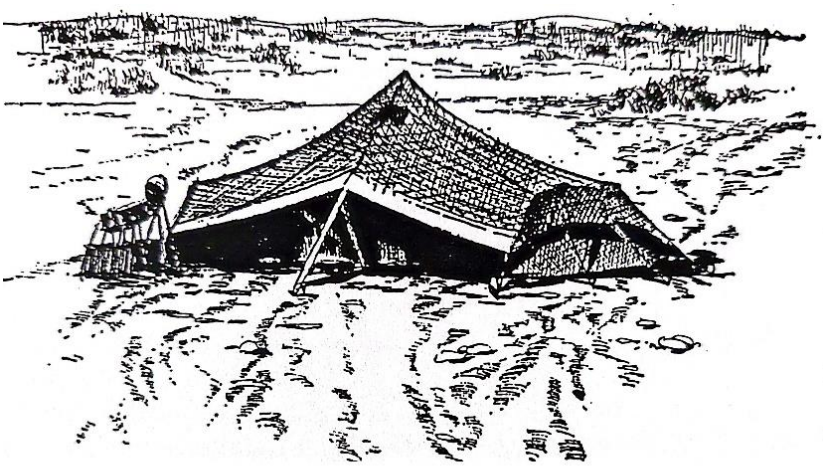

صورة (3): خيمة بدو الصحراء مع بعض خصلات النباتات بمرعى مؤقت

المصدر: Gabriel ROUGERIE (2000): L'homme et son milieu, NATHAN, Paris, p. 20

ومن السهل أن نرى أن أنماط البيئات المعيشية التي تم إنشاؤها تختلف من أحد هذه الأنواع إلى آخر. ومع ذلك فإنها في كل منهما تحمل في المقام الأول علاقة الظروف التي توفرها البيئة الطبيعية وتعبر عن نوع من التسوية التي تم إنشاؤها بينها وبين الاستجابات البشرية على مستوى الاستخدام وكذلك على مستوى الدفاع.

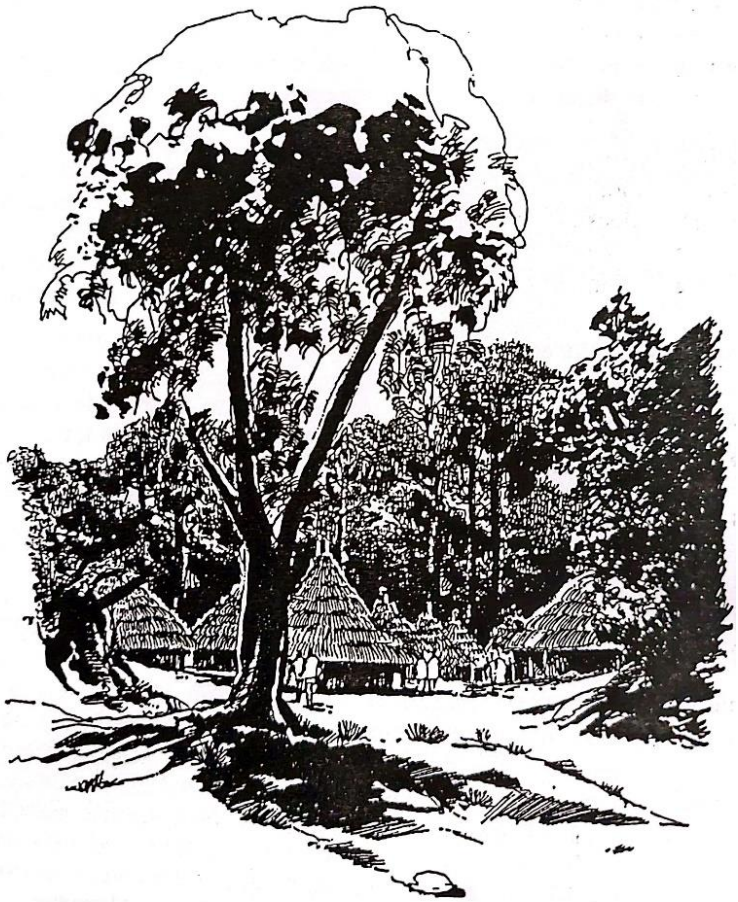

صورة (4) قرية غيرزي في الغابة الغينية

المصدر: Gabriel ROUGERIE (2000): L'homme et son milieu, NATHAN, Paris, p. 33

الجزء الثاني: البيئات المعيشية ذات الهيمنة العرقية والثقافية:

من الكلاسيكي أن نفصل بشكل جذري بين النوعين الأساسيين للمستوطنات البشرية. ليس بسبب الاختلافات بينهما في الأرقام أو حتى في الوظائف المنفذة هنا وهناك، ولكن بسبب الاختلاف في الجوهر وفي الدوافع.

لا يوجد تواصل بين القرية والمدينة. كل شيء يحدث على العكس من ذلك، كما لو كان هناك انقطاع كبير بين عالمين.

"القرية" كما كتب مومفورد، لم يكن من الممكن أن تتحول إلى مدينة بسبب الزيادة في عدد السكان فقط. كان لابد من حدوث تغيير أعمق، بحيث يتم توجيه الاهتمام نحو أهداف أخرى غير الاهتمامات المتعلقة بالغذاء والإنتاج الزراعي.

لقد حصل تغيير حقيقي، والكل متفق عليه، ظاهرة "البروز". يعتمد هذا التغيير عند البعض على اختلاف في السلوك فيما يتعلق بمُنتج العامل:

"المدن: هي الشكل السكني الذي تتخذه أفراد مجتمع ما لم يكن وجودهم المباشر في أماكن الإنتاج الزراعي ضروريًا، إنها المراكز الدينية والإدارية والسياسية، والتعبير المكاني عن التعقيد الاجتماعي المحدد بواسطة عملية الاستيلاء على مُنتج العامل وإعادة استثماره.

ينقح H. Lefebvre هذا النهج من خلال اعتبار أن "المدينة هي مراكز الحياة الاجتماعية والسياسية حيث لا تتراكم الثروة فحسب، بل تتراكم المعرفة والتقنيات والأعمال"، بتعارض العمل "قيمة الاستخدام" مع المنتج "القيمة السوقية"، مما يبدو لنا أنه يمس أعماق الخصوصية الحضرية، في نفس الوقت الذي يقدم فيه تفسيرًا للتطورات والإشكاليات الراهنة:

"...المدينة والواقع الحضري يرتبطان بقيمة الاستخدام. تميل القيمة التبادلية وعولمة البضائع من خلال التصنيع إلى تدمير المدينة والواقع الحضري من خلال إخضاعهما".

هناك بطبيعة الحال، بعض الأصداء البيئية في الظاهرة الحضرية. على الرغم من أنها أصبحت قديمة الطراز إلى حد كبير، إلا أنه يمكن العثور عليها في دراسة مواضع المدن، والعلاقات الواضحة بين المدينة والبيئات الطبيعية. ومن منظور التنبؤ، سيكون من المرغوب فيه تقييم القدرة الاستيعابية للبيئة العامة، والظروف المناخية العامة أو التفصيلية، وطبيعة التوازنات الموجودة مسبقًا، في كثير من

الأحيان، قبل إنشاء المناطق الحضرية أو التوسع الحضري. ويمكننا مع الأمم المتحدة، أن نؤمن إيمانًا عميقًا بأنه: لا يمكن لأي فلسفة اجتماعية للتحضر أن تنجح إذا لم تضع الإنسان الحضري في شبكة متكاملة للغاية من الروابط التي توحد جميع أشكال الحياة. ولكن لا يمكننا أيضًا الهروب من الانطباع بأن "المدينة تبدو مصنوعة من الأفكار أكثر من الطوب"، المدينة "هي عالم من الأفكار المتحجرة[1]"، على غرار الاختصار المذهل للمهندس المعماري الحضري أكس. أرسين هنري.

من بين الجانبيين الرئيسيين لعلم البيئة، العلاقات بين المجتمع الحيوي والبيئة الحيوية. تميل العلاقات داخل المجتمع الحيوي إلى شغل المساحة بأكملها، لاسيما عندما تضيف إمكانية تحرير النفس من الأولوية من الروابط الغذائية: لم يعد الشخص يكرس نشاطه وانتباهه للبحث الوحيد عن الطعام! بسبب القدرة الأساسية للأنواع على الهروب من التبعيات البيئية الصارمة.

علاقات التبادل أو الاستقبال أو المواجهة بين أعضاء المجموعة: هذا هو ما سيحتل، في الفضاء، كأولوية مراكز تجمع السكان، ومع مرور الوقت يكتسب المزيد والمزيد – حتى خارج هذه النوى – مع التحرر من العبودية الغذائية.

إن حقائق المجتمع، هي في الواقع، في حالة توسع متسارع وهي منقوشة في الفضاء في الهياكل التي تتجاوز المراكز الحضرية، وهي أول ما يتم تمييزه. ليس فقط، كما يوحي الاقتباس من دوركهايم المذكور أعلاه، أن هذه المراكز الحضرية وتطوراتها الحالية ليست علامة على التدهور، ولكنها كما يمكن أن يقول تيلار دي شاردان، ظاهرة تدعو إلى التشكيك في مجال الوعي البشري "مجال نو Noosphère أو مجال الوعي"، وراء نطاق حيوي مشترك، والذي أصبح كوكبيًا على نطاق أوسع.

مع تحرره من أهمية روابط النظام البيئي، فإن هذا النظام غير المادي إلى حد كبير للأشياء يكون مصحوبًا بإسقاطات مادية تساهم في تطوير أطر الحياة ذات طبيعة معينة. في هذه المجالات من علم السلوك، من المناسب التمييز بين الجزء الذي يأتي من لعبة العلاقات الاجتماعية والجزء الذي يأتي من علم النفس والسلوك الفردي.

(١) أي الأفكار التي ترجمت إلى حجارة.

الجزء الثالث: البيئات المعيشية في مخاطر المجتمع السيبراني:

لم تعد كلمات نيكولا شوفر، عام ١٩٦٩، عن المدينة "السيبرنطيقية" مجرد تعبير عن خيال مصمم معماري. في نهاية هذه الألفية الثانية، تُطوي صفحة في تاريخ العلاقات الإنسانية. ربما كان نظامًا أكبر بكثير مما كان عليه خلال فترة الانقطاعين أو الثلاث الكبرى، العصر الحجري الحديث، وعصر النهضة، والثورة الصناعية الأولى. اليوم لم تعد مجرد مدينة إلكترونية، بل "فضاء إلكتروني" يمتد إلى الكوكب بأكمله، "عالم إلكتروني".

يبرز هذا المفهوم سمتين رئيسيتين تؤثران على المجتمعات المعاصرة: الميل نحو فهم عالمي للمشاكل والعلاقات والتبادلات، وظهور تقنية اتصال محوسبة.

كان هناك حديث عن العولمة Globalization في الأوساط الأكاديمية الأمريكية في أوائل الثمانينيات؛ تم استبدال هذا المصطلح عمليًا، في فرنسا على الأقل، بمصطلح "العولمة" Mondialisation. الحقيقة تبدو مهمة". إن العولمة Globalization بالمعنى الاجتماعي أو الاقتصادي، قد تكون جزءًا من ظاهرة تميز العديد من التوجهات – أبرزها العلمية – في هذا القرن، التي استبدلت التقسيمات القطاعية برؤية نظامية. يمكن أن تمثل هذه العولمة Globalization النتيجة المنطقية للتطور: "بالمصطلحات الداروينية، كتب A. Alland في ١٩٧٤، "إن العالم بأكمله هو الذي أصبح بيئة الإنسان L'environnement. إن بقاء جنسنا البشري يعتمد على التكيف العالمي". يبدو أن هذا قد تم تأكيده، بعد حوالي خمسة عشر عامًا، من خلال استنتاج E. Laszlo: إن عقدنا هو الفترة الأكثر أهمية في تاريخ عالمنا الطويل والحافل بالمغامرات"، بعد الإشارة إلى السكان "مترابطون بشكل متزايد".

تثير فكرة الاتصال البيئي هذه على الفور شبكة الويب الشهيرة الآن. ولكن في العولمة كما يدعو إليها حاليًا، هناك شيء آخر.

هناك بالفعل شبكة من الروابط والتدفقات ذات طبيعة غير مادية إلى حد ما، وهناك في الوقت نفسه، روابط مادية لاقتصاد السوق. إن التراكب والجمع بين الاثنين على نطاق عالمي هو الذي يشكل العولمة Mondialisation.

إن تعميم المكون الأول يستفيد من أسبقية معينة، مع ظهور مصطلح "القرية العالمية" للسيد Mc. Luhan منذ حوالي ثلاثين عامًا، سرعان ما توسع ليشمل مفهوم "المدينة العالمية"، ثم "المجتمع العالمي" في المجالات السياسية الأمريكية خلال الحرب الباردة. لكن هذه الرؤية للأشياء، التي تجمع بين

القليل من المدينة الفاضلة والتكنولوجيا الحديثة، مكنت في العقد التالي من تسهيل التوسع، على المستوى الجيوسياسي، للأيديولوجية التجارية.

لا يسعنا إلا أن نعتقد أن اضطرابًا بهذا الحجم، في رؤية العالم المأهول وعمله، لا يمكن إلا أن يكون له تأثيرات على ما مثلته البيئات المعيشية وما لا تزال تمثله.

وأمام هذا الاضطراب، تنقسم التكهنات والتقييمات بين السلبية تمامًا والإيجابية تمامًا. ما هي العولمة في الأساس؟ هل تعني المضاربة المالية بدون مجمعات؟ أم مشروع اجتماعي كريم لكنه غير واقعي؟ هل ليس لدينا سوى الاختيار بين شيطنة العولمة المذكورة أو التوقع الساذج لـ "القرية العالمية"؟

ليس الغرض من هذا العمل – المقصود هنا الكتاب الراهن – إصدار حكم على هذا العالم السيبراني المعلن، ولكن فقط محاولة فهم جوانبه الرئيسية، من أجل تخيل كيف من المحتمل أن تتأثر أطر الحياة البشرية.

رابعاً: الخاتمة:

في النهاية، يبدو أن الانطباع يظهر عن المنطق الكامن وراء تطور العلاقات بين البشر وأرضهم: التحرر التدريجي فيما يتعلق بحتميات نوع النظام البيئي. تترجم الأثار التي تركها هذا التاريخ في الفضاء والعقليات والثقافات إلى أجواء وبيئات يمكن وصفها بأنها بيئات معيشية.

أقرب إلى الحتمية، تستجيب هذه البيئات المعيشية في المقام الأول لمتطلبات ذات طبيعة إيكولوجية: فالروابط المنسوجة بينها وبين الإنسان لها مكون "رأسي" في الأساس، وهي تنتج عن الحاجة إلى التكيف، في بيئة معينة، مع ما هو ضروري للعيش هناك.

بغض النظر عن المكان أو الزمان، نلاحظ ظهور بيئات معيشية حيث تسود الروابط العلائقية بين السكان الذين تأويهم هذه البيئات المعيشية مؤسسة على روابط الاعتماد على البيئة المحلية: فنحن ننتقل من الهيمنة البيئية إلى الهيمنة العرقية.

في كلتا الحالتين: البيئة المعيشية تتوافق مع مجمع حيث يتقاطع ما هو نفعي، اعتيادي، وعاطفي في علاقات مختلفة. ومع ذلك، مهما كان التعبير عن الاستجابات المقدمة على هذا النحو للمواجه بين الإنسان والبيئة، فإننا نلاحظ استمرار عوامل النظام غير المادي في البيئات المعيشية، مهما

كان مستوى التطور الذي تنتمي إليه: من السكان الأصليين، والبدو، وسكان الواحات، ومزارعي الأرز أو الفلاحين على اختلاف أنواعهم إلى المجتمعات الحضرية التي تهيمن عليها العلاقات العرقية.

اليوم، يبدو أن إمكانية الاختيار قد حلت محل قسوة الضرورة، في المجتمعات التي توسعت علاقاتها – على الأقل المحتملة – لتشمل الكوكب بأكمله وكل ما يمكن أن يقدمه من موارد مادية وغير مادية. إن العولمة والثقافة الإلكترونية هما المحركان لهذا التطور، وهما القوتان اللتان ستتحكمان الآن في عمل المجتمعات على مستوى البشرية. الأول، بمكونات مادية قوية: عولمة السوق والتدفقات المالية؛ والثاني، التي تم تقديمها على أنها "حضارة غير مادية" أصبحت ممكنة بفضل تقنيات الاتصال.

وبالتالي، بادعاء عدم المادية، يبدو أن الثقافة السيبرانية تتناسب تمامًا مع المنطق المتطور للعلاقات الذي يتضح من مجموعة البيئات المعيشية، في جميع أنحاء العالم وعلى مر التاريخ. هل هو حكم العقل، الذي لُقب بمجال الوعي Noosphère بواسطة شاردان وفرنادسكي قبل سبعين عامًا؟

ومع ذلك، لا يمكننا أن نتجاهل تهديدات الخلل الوظيفي، بل وحتى الكارثة، التي يفرضها الجانب الآخر، أي العولمة التجارية والمضاربة: فالأفراد والثقافات يخاطرون بوجودهم في المستقبل...لقد جمع رفض هذا الاحتمال، في Seattle [مدينة في واشنطن]، عشرات الآلاف من المعارضين صباح يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٩٩، وتسببوا في فشل قمة منظمة التجارة العالمية.

أليس من المناسب، بكل بساطة، أن نتحلى بالتواضع لندرك مع Pascal أن الإنسان ليس ملاكًا ولا وحشًا، وأن الاثنين يتعايشان فيه، ويراقبان النتيجة؟ في ظل هذه الظروف، يمكننا أن نؤمن بطرق جديدة للتواجد في العالم وسكانه، والتي تتوافق مع فكرة العولمة Globalisation؟

من خلال التنشئة الاجتماعية الممتدة على مستوى الكوكب، بدلًا من العولمة التجارية، من الممكن تجنب الفخاخ العدائية لخصوم الطوباوية (المثالية) والكوارث. وليس من المستبعد أن تظل البيئات المعيشية مرتبطة بتنوع الثقافات، إلى الحد الذي تحترمه هذه المرحلة الكبرى من تطور البشرية، والتي تحدث مع تطور أي كائن حي، الذي يسير جنبًا إلى جنب مع التمايز الخلوي: هذه قاعدة حياة، على عكس التمايز الذي يؤدي إلى الموت.

هناك صورتان رمزيتان في الآونة الأخيرة تجعلاننا نتوقف للتأمل فيما يمكن أن تمثله المشاركة على نطاق عالمي من هذا التطور. فرحة التعددية العرقية والثقافية في نهاية كأس العالم لكرة القدم، ١٢ يوليو/تموز ١٩٩٨. فرحة التأمل متعددة الجنسيات، في جنازة العاهل الأردني الملك حسين، ٨

فبراير/شباط ١٩٩٩. لقد صنع الأول والآخر بواسطة إعلام "حضارة اللامادي" المتاحة للجميع، في الكوكب بأكمله، من خلال تعدد البيئات الطبيعية، صنعا أنماط من الحياة وبيئات معيشية التي يبنونها: فهما بالتأكيد لم يمحواها...أعطا الفرصة هنا وهناك للحياة بضع لحظات من الحماس في انسجام تام.

خامساً: قائمة المصطلحات:

- أغوارا Agora: في مدن اليونان القديمة، كانت الساحة العامة تستخدم للأسواق والمبارزات الخطابية. وبالتالي تمثل فضاء حضري ملائم للاجتماعات.
- الحراجة الزراعية Agroforesterie: نظام يجمع بين الأشجار (المحفوظة أو المزروعة)، وأشجار الفاكهة، والمحاصيل النقدية (الكاكاو، والبن، ....) والمحاصيل الغذائية في نفس الوقت.
- آراير Araire: أداة قديمة كانت تستخدم في الحراثة.
- المعماري Architectonique: ممارسة البناء، الممتدة على مستوى العمارة وعلى مستوى التخطيط الحضري.
- التناوب كل سنتين Assolement biennal: ممارسة زراعية تتمثل في تخصيص قطع الأرضي لنفس نوع الاستخدام، إما لزراعة القمح أو البور، من سنة إلى أخرى. خاص بالمناطق الجنوبية.
- التحفيز الذاتي Autocatalyse: في الكيمياء، نوع من التفاعل يعمل في أحد المنتجات الثانوية كمحفز، مما يسمح باستمرار الظاهرة. وقياسا على ذلك، فإن الوضع مستمر، كما لو كان مستدامًا ذاتيًا.
- التنظيم الذاتي Autorégulation: قدرة الكائن الحي أو النظام على الحفاظ على توازنه ضمن حدود معينة لا تتجاوزها التقلبات العشوائية التي يتعرض لها.
- باستيد Bastide: تقع بشكل رئيسي في آكيتاين، وهي بلدة من الفترة الإقطاعية (القرن الثاني عشر والثالث عشر) محاطة بأسوار تتخللها الأبراج، تلعب دور الحصن وتعيش من استغلال الأراضي المحاطة بها.
- المجتمع الحيوي Biocénose: جزء من المحيط الحيوي يتكون من كائنات حية تنظمها علاقات الاعتماد المتبادل. يقتصر استخدام المصطلح عادة على المجتمعات النباتية والحيوانية التي تشغل مساحة معينة.
- الكتلة الحيوية Biomasse: الكتلة الكلية للمادة التي تشغل مساحة معينة من السطح.

- المحيط الحيوي Biosphere: تنظيم نظامي يضم جميع الكائنات الحية والعناصر الخاملة التي تتفاعل معها. كما يشير المصطلح إلى الكائنات الحية والنباتات والحيوانات.
- الموئل الحيوي Biotope: المكون الخامل الذي يرتبط به المجتمع الحيوي Biocénose.
- بوكاج Bocage: فسيفساء من الحقول والمروج المحددة بشبكة من التحوطات، وأحيانًا سدود.
- بوزاكا Bozaka: مصطلح من مدغشقر يشير إلى المناطق العشبية بعد إزالة الغابات للاستخدامات الزراعية أو الرعوية.
- Cancé: عنصر من البنية الزراعية التقليدية، في البلدان ذات الزراعات المختلطة: الفاصل المزروع بين صفين من الكروم.
- مجتمع الذروة المناخي Climacique: هو مفهوم يطبق على نوع من النباتات يعتبر متوازنًا مع بيئته.
- مجمع ماص Complexe absorbant: مفهوم من علم التربة. أحد مكونات التربة ذات طبيعة غروانية أو ما قبل الغروية أو طينية أو عضوية، وبالتالي فهي قادرة على الاحتفاظ بالمواد الكيميائية القلوية – "العناصر المغذية".
- زراعة الركود Culture de décrue: زراعة المحاصيل الغذائية، وخاصة الحبوب، في القاع الرئيسي للنهر بعد انحسار منسوب المياه، تقوم في منطقة استوائية.
- الزراعة الجافة Culture sèche: الزراعة التي تتم دون استخدام الري.
- الدوار Douar: مصطلح عربي يشير إلى بلدة ريفية صغيرة: مخيم أو قرية صغيرة.
- عالم البيئة Ecologiste: هذا المصطلح، الذي كان يطلق في البداية على عالم مخصص لدراسة علاقات الكائنات الحية مع بعضها البعض ومع بيئتها، ينطبق الآن على أتباع أيديولوجية بيئية عاطفية أكثر منها علمية.
- عالم البيئة Ecologue: متخصص في علم البيئة.
- المعمور Ecoumène: جزء من الفضاء الأرضي يشغله الإنسان بطريقة مستقرة.
- النظام البيئي Ecosystème: التنظيم الذي يتم تحقيقه من خلال العلاقات التي تقيمها الكائنات الحية (المجتمع الحيوي) مع بعضها البعض ومع بيئتها (الموئل الحيوي)، على مستويات مختلفة داخل المحيط الحيوي.
- علم تأثير التربة Edaphique: هو ما يتعلق بالتربة. هي الخصائص الفيزيائية والكيميائية التي لها تأثير على النباتات والحيوانات.

- الزرع Emblavure: الأرض المزروعة بالحبوب.
- سور Encoture: الترجمة الفرنسية للمصطلح الإنجليزي الذي يشير إلى فعل إحاطة المروج والحقول في منطقة ريفية.
- التخثث Eutrophisation: اختلال البيئة بسبب الزيادة المفرطة في محتواها من العناصر الغذائية مما يؤدي إلى تضخم الحياة النباتية فيها.
- التبخر Evapotranspiration: فقدان الماء موضعيًا، ويجمع بين تبخر التربة وأسطح النباتات من جهة، ونتح النباتات من جهة أخرى.
- مدى أراضي القرية Finage: منطقة ريفية محددة بدقة، تابعة لقرية، وتتكون من قطع أراضي مختلفة (حقول، مروج، مستنقعات) يستغلها المجتمع.
- قناة الري أو القناية Foggara: مصطلح عربي يشير إلى رواق تحت الأرض، يعمل بمثابة قناة للمياه ويتخلله اصطفاف الآبار على السطح.
- المنتدى Forum: في العصور القديمة اللاتينية، سوق يتم فيه أيضًا التعامل مع الشئون العامة.
- الأراضي البور التجارية (الأراضي البور الصناعية) Friche commerciale: قياسًا على المساحات الزراعية المحررة من استخدامها الزراعي، والمساحات الحضرية التي انتهى فيها النشاط الصناعي أو التجاري.
- جارا Gara: مصطلح عربي يشير إلى تلة معزولة، ذات قمة مسطحة بشكل عام.
- النواة Germe: تعبير عن التخطيط الحضري، يستخدم بشكل خاص في سياسة المدن الجديدة: قطاع يجمع حول محطة القطار، الوظائف التجارية والإدارية والثقافية.
- جوربي Gourbi: مصطلح يشير إلى وحدة سكنية صغيرة.
- هويرتا Huerta: مصطلح إسباني يشير إلى قطع الأراضي المروية المخصصة تقليديًا لإنتاج الحبوب والأعلاف والخضروات؛ اليوم في زراعة الفاكهة بشكل خاص.
- معزول Isolat: موطن لمجموعة نباتية أو حيوانية في حالة من العزلة.
- Joualles: تناوب شرائح الزراعة وصفوف الكروم.
- لادانغ Ladang: حقل يشارك في الزراعة بالقطع والحرق، في ماليزيا.
- Litiere: طبقة من مخلفات النباتات سيئة التحلل على سطح التربة.
- Lougan: حقل يشارك في الزراعة بالقطع والحرق، في غرب أفريقيا.

سادساً: الإصدار:

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٠، من خلال دار النشر Nathan باريس، ذات ترقيم دولي: ISBN: .2.09/191069

سابعاً: الخاتمة:

تختلف بالفعل البيئة البشرية عن البيئة المعيشية كما تختلف الأولى بدورها عن البيئة الطبيعية. قدم المؤلف منهجًا للجغرافيا العالمية من خلال ثلاثة أجزاء متتالية، من البيئات المعيشية ذات الهيمنة الإيكولوجية بالجزء الأول، إلى البيئات المعيشية ذات الهيمنة العرقية والثقافية في الجزء الثاني، وأخيرًا البيئات المعيشية في مخاطر المجتمع السيبراني بالجزء الأخير. مهد المؤلف لهذه المحتويات في المقدمة، واختتم هذه المحتويات بملخص نتائج الأجزاء الثلاثة، وزود القارئ بقائمة من المصطلحات العلمية والأشكال التوضيحية. مما يدعو نحو تقديم الشكر لمؤلف الكتاب على كل ما قدمه من معلومات وردت في هذا الكتاب للمكتبة الجغرافية العالمية.